

الباب السابع في دفع العجب

العُجْب إنما ينشأ من حب النفس . والمحبوب لا ترى زلته ولا يعتقد نقصه ، بل يرى بعين الكمال ومن بلايا العجب أنه يؤدي إلى بغض الأمر الذي به وقع العجب ، لنـ المعجب بنفسه في أمر لا يتزايد منه .

ثم يترقى على أن يعيب غيره في الاعتقاد والنقص في سواه . وعلاج العجب البحث عن عيوب النفس على ما بيننا أنفأ ، وسؤال الغير عن قبائحها ومعايبها ، والنظر في أحوال من سبقه إلى ما أعجب به وبرز عليه ، فإن عجب العالم بعلمه فلينظر في سير العلماء أو بزهده ، فلينظر في سير الزهاد ، فحينئذ لا يعد نفسه . فقد كان الإمام أحمد يحفظ ألف ألف حديث ، وكان كهمس بن الحسن يختم كل يوم وليلة ثلاث مرات ، وصلى سلمان التيمي بوضوء العتمة أربعين سنة .

ومن تأمل سير القوم رأى نفسه فيما حصل بالإضافة إليهم
كمن معه دينار يعجب به ولا يدري أن في الدنيا من يملك
أولفاً كثيرة .

ويسنده قال إبراهيم الخواص : العُجب يمنع من معرفة قدر
النفس .

وقال بعض الحكماء : عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله ،
وما أضر العجب بالمجلس .

الباب الثامن

في دفع الرياء

من عرف الله تعالى حق معرفته أخلص له عمله ، وإنما يقع
الرياء من قلة المعرفة له ، وتعظيم قدر الحق ، وإيثار النفس
مدحهم ، وحمدهم والناس في هذا المرض متفاوتون ؛ فمنهم
من لا يقصد بعمله إلا مدح الخلق له .

ومنهم من يريد الله بعمله ويريد مدح المخلوقين ، ومنهم من لا يقصد الخلق أصلاً ، فإذا طلّعوا عليه حسن العمل وجوده ليمدح تحقيق معرفة الله سبحانه ، فمن عرفه أفرد القصد له ولم يغيره.

وأقام نفسه مقام العابد الذليل للمعبود ؛ لا في مقام معبود ممدوح ، ورأى أن حصول الأجر إنما يكون بخالص العمل ، فاحترس من تعب ضائع . والعقوبة على الرياء شديدة .

بسنده حديث عمر بن الخطاب : ((إنما الأعمال بالنية ، وإنما لكل امرئ ما نوى)) . (١)

ويسنده إلى أبي موسى ، قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل

(١) أخرجه البخاري في (الإيمان ، ح / ١) ومسلم في (الإمارة ، ح / ١٥٥) .

الله)) متفق عليه .^(١) ويسنده إلى أبي هريرة ، قال : قال له نائل الشامي : أيها الشيخ حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ فقال : سمعت رسول الله ﷺ . يقول : ((إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة :

رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها .

فقال : ما علمت فيها ؟

قال : قاتلت فيك حتى قتلت .

قال : كذبت ، ولكنك قتلت ليقال : هو جريء ، فقد قيل ثم

أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها .

فقال : ما علمت فيها .

قال : تعلمت فيك العلم وعلمته ، وقرأت القرآن .

(١) أخرجه البخاري في (العلم ، ح / ١٢٣) ومسلم في (الإمارة ، ح

/ ١٥١ . ١٤٩) .

فقال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : هو عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل .

ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها .

فقال : ما علمت فيها .

قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك .

قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار)) . (١) انفراد بإخراجه مسلم .

ويسنده إلي أبي هريرة عن النبي ﷺ . يرويه عن ربه عز وجل ، قال : ((أنا خير الشركاء فمن عمل عملاً فأشرك

(١) أخرجه مسلم في ٠ الإمامة ، ح / ١٥٢ ٩ والمشكاة (٢٠٥) .

فيه غيري فأنا بريء منه ، وهو للذي أشرك)) (١) أخرجه مسلم .

ويسنده إلى محمود بن لبيد أن رسول الله - ﷺ . قال : ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ !

قال : الرياء ، يقول الله تعالى لهم يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم ذهبوا إلى الذين كنتم ترءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً)) . (٢)

ويسنده على أبي حازم قال : لا يحسن عبد فيما لا بينه وبين العباد و لا يعور فيما بينه وبين الله إلا عورَ الله ما

(١) أخرجه مسلم في (الزهد ، ح / ٤٦) وأحمد ٢٠ م ٣٠١) وابن خزيمة (٩٣٨) .

(٢) أخرجه أحمد (٥ / ٤٢٨) والمشكاة (٥٣٣٤) وصحيح الجامع (ح / ١٥٥٥) .

بينه وبين العباد ، ولمصانعة وجه واحد أيسر من مصانعة
الوجه كلها ، إنك إن صانعت هذا الوجه مالت إليك الوجوه
كلها ، وإذا أفسدته شنأتك الوجوه كلها . (١)

ويسنده إلى ابن توبة أبي جعفر عبد الله قال : رأيت أبا بكر
الآدمي القارئ في النوم بعد موته يمد يده ، فقلت له : فتلك
الليالي والمواقف والقرآن .

فقال : ما كان شئ أضر عليّ منها لأنها كانت للدنيا .

فقلت : فإلى أي شئ انتهى أمرك ؟

قال لي : تعالى آليت على نفسي أن لا أعذب أبناء الثمانين .

(١) أخرجه أبو نعيم في " الحلية " (٣ / ٢٣٩) من طريق أحمد بن
حنبل .

الباب التاسع

في دفع فضول الفكر

اعلم أن الفكر يراد لاستدراك فارط ، والنظر في مصلحة مستقبلية ؛ فإذا كان فيما لا يثمرها كان ضرراً ، وإذا كثرت أهداك البدن .

قال بقراط : ينبغي للعلماء أن يتركوا الفكر وقتاً ما لئلا يهداك أبدانهم .

قلت : ولا يجوز للعاقل أن يخلي نفسه من الفكر ولك يكون فيما يتصور له نيله ، فأما إذا تفكر العامي في أن يكون خليفة وأن ينال علم أبي حنيفة والشافعي ، ثم يجمع بينه وبين زهد بشر ومعروف الكرخي ، ويحصل مثل نال عبد الرحمن بن عوف ؛ فهذه أفكار تضني وتردي خصوصاً إذا قنع بالفكر ، واستعمل الكسل عن الطلب ، وإنما ينبغي أن يتفكر في جهاده للطبع في دفع الشر ، فقد تفكر خلق كثير

من العصاة في عواقبهم ، فتابوا وكثير من الملوك في غرور الدنيا ، فتزهدوا .

قال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه . (١)

ويسنده إلى أم الدر داء ، قيل لها : ما كان أفضل عمل أبي الدر داء ؟ قالت : التفكير والاعتبار . (٢)

ووقف مالك بن دينار ليلة في داره على قدمه إلى الفجر ، فقال : مازال أهل النار يعرضون عليّ بسلاسلهم وأغلالهم إلى الصباح .

وقال بعض الحكماء : بترداد الفكر ينجاب العمى .

(١) أخرجه ابن المبارك في " الزهد " (ص ٤٠٣) .

(٢) أخرجه ابن المبارك في " الزهد " (ص ٣٠٢) .

الباب العاشر

في دفع فضول الحزن

اعلم أن العاقل لا يخلو من الحزن ؛ لأنه يتفكر في سالف ذنوبه فيحزن على تفريطه ، وفيما قال العلماء والصالحون فيحزن لفوته .

بسنده إلى مالك بن دينار قال : إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب ، كما أن البيت إذا لم يسكن خرب .^(١)

ويسنده إلى إبراهيم بن عيسى رحمه الله ، قال : ما رأيت أطول حزناً من الحسن ، وما رأيت قط إلا حسبته حديث عهد بمصيبة .^(٢)

ويسنده إلى مالك بن دينار قال : بقدر ما تحزن للعالم كذلك يخرج هم الآخرة من قلبك ، وإذ قد تبين أن الحزن لا يزال

(١) أخرجه أبو نعيم في " الحلية " (٢ / ٣٦٠) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في " الحلية " (١٠ / ٣٩٣) .

ملازماً لقلوب المتقين فينبغي أن يتقي إفراطه لأن الحزن على
الفائت وقد عرفنا طريق الاستدراك .

وجاء في الحديث : ((بقية عمر المؤمن لا قيمة له
يستدرك فيه ما فات)) فإن كان المحزون عليه لا يمكن
استدراكه لم ينفع الحزن ، وإن كان ديناً فينبغي أن يقاومه
برجاء الفضل والرحمن ليعتدل الحال ، فإما إذا كان الحزن
لأجل الدنيا وما فات منها فذلك الخسران المبين ، فليدفعه
العاقل عن نفسه .

وأقوى علاجه أن يعلم أنه لا يرد فائتاً وإنما يضم إلى
المصيبة فتصير اثنتين ، والمصيبة ينبغي أن تخفف عن
القلب وتدفع ، فإذا استعمل الحزن والجزع زادت ثقلأ .

قال ابن عمرو : إذا استأثر الله بشيء فالة عنه ثم في
الخلف عن الفائت ما يسلي ، فإن عدم ما يسلس اجتهد في
صرف ذلك عن قلبه ، وليعلم أن الداعي إلى الحزن الهوى ،

لا العقل ، لأن العقل لا يدعو إلى ما لا ينفع ، وليعلم أنه سيسلو بعد حين ، فليجتهد في تقديم المؤخر ، وليرتح ما بين الزمانيين ، ومما يحق الحزن بأنه لا يفيد ، والإيمان بالثواب ، ويذكر من لأصابه أكثر من مصيبتة .

الباب الحادي عشر

في دفع فضول الغم والهم

الغم يكون للماضي ، والهم للمستقبل ، فمن اغتم لما مضى من ذنوبه نفعه غمه على تفريطه ، لأنه يثاب عليه ، ومن اهتم بعمل خير ، نفعته همته ، فإما إذا اغتم لمفقود من الدنيا لا يرجع ، والغم يؤذي ، فكأنه أضاف إلى الأذى أذى ، كما قلنا في الحزن .

وينبغي للحازم أن يحترز مما يجلب الغم ، وجالبه فقد المحبوب ، فمن كثرت محبوباته كثرت غمه ، ومن قلها قل

غمه ، فإن قال قائل : إذا لم أجد محبوباً اغتممت ، قيل له صدقت ، ولكن لا يبلغ غمك بالعدم معشار عشر غم من فقد المحبوب ، ألا ترى أن من لا ولد له يغتم ، ولكن لا كغم من أصيب بولده ، ثم إن الإنسان كلما طال ألفه لما يحبه واستمتعاه به تمكن من قلبه ، فإذا فقد أحسن من مر التألم في لحظة لفقده بما يزيد على لذات دهره المتقدم .

وهذا لأن المحبوب ملائم للنفس كالصحة فلا تجد النفس لذتها إلا عند وجودها ، وفقدتها مناف لها .

ولذلك تألم بالفقد ما لا تفرح بالموجود لأنها ترى وجود المحبوب كالحق الواجب لها ، فينبغي للعاقل تقليل الألفة ، فإن اضطر إلى جوالب الغم فأثمرت الغم فعلاجه في الأول الإيمان بالقدر ، وأنه لا بد مما قضى ثم يعلم أن الدنيا موضوعة على الكدر ، فالبناء إلى النقص ، والجمع إلى التفريق ، ومن رام بقاء ما لا يبقى كان كمن رام وجود ما لا

يوجد ، فلا ينبغي أن يطلب من الدنيا ما لم توضع عليه كما
قال الشاعر :

طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الإيذاء
والأكدار

ثم يتصور ما نزل به مضاعفاً فيهون عليه حينئذ ما هو
فيه ، ومن عادة الحمال الحازم أن يترك فوق حملة شيئاً
ثقيلاً ، ثم يمشي خطوات ، ثم يولي به فيخف المر عنه ،
ثم ليرتقب زمن العافية هجوم البلاء ، فإذا هجم ما يكرهه ،
وليتمثل كلما يتصور نزوله نازلاً ، فإذا نزل بعض ذلك كان
ريحاً مثل أن يتصور أن يؤخذ ماله كله ، فإذا أخذ البعض
عد الباقي غنيمةً ، ويتصور أن يعمى ، فإذا رمد سهل
الأمر ، وكذلك جميع المضرات ، قال الشاعر :

يمثل ذو اللب في نفسه مصائبه قبل أن تنزلا
فإن نزلت بغتة لم ترعه لما كان في نفسه مثلاً

وذو الجهل يأمن أيامه وينسى مصارع من

قد خلا

فإن بدهته صروف الزمان ببعض مصائبه

أعولا

ولو قدم الحزن في أمره لعلمه الصبر

حسن البلا

قال بعض السلف : رأيت امرأة فتعجبت من نضارتها ، فقلت : هذا وجه ما طرقه حزن .

فقالت : لا تقل هذا ، فما أعرف من ناله ما نالني ؛ كان لي زوج ، فاشتري أضحية فذبحها ، وله ولدان .

فقال الأكبر للأصغر : تعال حتى أريك كيف ذبح أبي الشاة ، فذبحه ، فلما طلبناه هرب ، فخرج الأب في طلبه فهلكا .

فقلت : وكيف حزنك ؟

قالت : لو وجدت في الحزن دركاً لاستعملته .

الباب الثاني عشر

في الحزن دفع فضول الخوف والحذر من الموت

وقد يقع الحزن والغم من غلبة السواد فيعالج بما يزيل السواد بالفرحات .

والغم يجمد الدم ، والسرور يلهب الدم حتى تعلق حرارته الغريزية ، وجميعاً يضران ، وربما قتلا إن لم يعجل تفتيرهما .
الخوف والحذر إنما هما للمستقبل ، والحازم من أعد للخوف عدته قبل وقوعه ، ونفي فضول الخوف مما لا بد منه ، إذ لا ينفعه خوفه منه ، وقد اشتد الخوف من الله تعالى بكثير من الصالحين حتى سألوا الله تعالى تقليل ذلك ، والسبب في سؤالهم أن الخوف كالسوط فإذا ألح بالسوط على الناقة قلقت ، وإنما ندب به المتواني .

بسنده إلى أبي سفيان الثوري ، قال لشاب يجالسه : أتحب أن تخشى الله حق خشيته ؟

قال : نعم .

قال : أنت أحق لو خشيتَه حق خشيتَه ما أدبت الفرائض .

الباب الثالث عشر

في أن العاقل لا ينبغي أن يخاف

ولا ينبغي للعاقل أن يشتد خوفه من نزول المرض ، فإنه نازل لا بد ، وخوف ما لا بد أن يأتي زيارة أذى ، فأما الخوف من الموت والفكر فيه ، فإنه لا سبيل إلى دفعه عن النفس ، وإنما يخفف الأمر العلم بأنه لا بد منه ، فلا يفيد الحذر إلا زيادة على المحذور ، وكلما تصورت شدته كانت كل تصويره موتاً ، فليصرف الإنسان فكره عن تصور الموت ليكون ميتاً مرة لا مرات . ويكون صرف الفكر ربحاً ، وليعلم أن الله تعالى قادر على تهوينه إذا شاء ، وليوقن بأن ما بعده أخوف منه ، لأن الموت قنطرة إلى منزل إقامة .

الباب الرابع عشر

في الموت

ومن نزل به الموت فليعلم أنها ساعة تحتاج إلى معاناة صعبة لأن صورتها ألم محض ، وفراق المحبوبات ، ثم ينضم إلى ذلك هول السكرات ، والخوف من المال مآل ، ويأتي الشيطان فيسخط العبد على ربه .

ويقول : انظر في أي شئ ألقاك ، وما الذي قضى عليك ، وكيف يؤلمك ، وما أنت تفارق والدك وأهلك وتلقى بين أطباق الثرى ، فرما أسخطه على ربه وكره قضاء الله تعالى إليه .

وأنطقه بكلام يتضمن نوع اعتراض ، وربما حسن إليه الجور في الوصية ، وأن يزوي لبعض الورثة إلى غير ذلك من المحن ، فتعيّن حينئذ الحاجة إلى معالجة إبليس ومعالجة النفس .

وقد نقل أبو داود من حديث أبي اليسر عن النبي ﷺ أنه كان يقول رسول الله ﷺ : ((أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت)) .^(١) وفي تلك الساعة يقول الشيطان لأعوانه : إن فاتكم الآن لم تقدروا عليه أبدًا .

فأما العلاج لتلك الشدائد فينبغي أن نذكر قبله مقدمة ، وهو أن من حفظ الله في صحته حفظه الله في مرضه ، ومن راقب الله في خطراته حرسه الله عند حركات جوارحه .

وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : ((احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)) .^(٢) ثم قد سمعت قصة يونس عليه السلام لما كانت له أعمال خير متقدمة انتاشتته من شدته

(١) أخرجه أبو داود (ح / ١٥٥٢ ، ١٥٥٣) والنسائي (٢٣٨ / ٨) من طريق أفلح مولى أبي أيوب .

(٢) أخرجه الترمذي (ح / ٢٥١٦) وأحمد (٣٠٧ / ١ ، ٣٠٨) .

فقال تعالى : { فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلْبَيْتِ فِي بَيْتِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤] .

ولما لم يكن لفرعون عمل خير لم يجد وقت الشدة متعلقاً ،
ف قيل له : ﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾
(يونس: ٩١) وكان عبد الصمد الزاهد يقول عند الموت : ((
سيدي لهذه الساعة خبأتك فأما من ضيع في صحته فإنه
يضيع في مرضه)) .

كما نقل هن بعض الصحابة أنه رأى شيخاً يطلب من الناس ،
فقال : هذا ضيع أمر الله في صغره فضيعه الله في كبره .
فأما نفس العلاج فينبغي أن تشجع النفس ، وتقول لها : إنما
هي ساعة ثم أرجو كمال الراحة كما قال عليه السلام : ((لا
كرب على أبيك بعد اليوم)) . (١)

(١) أخرجه ابن ماجة (ح / ١٦٢٩) والشامائل (٢١١) .

ودعى أبو بكر بن عياش عند الموت إلى الرجاء فقال :
كيف لا أرجوه وقد صمت له ثمانين رمضان .

وقال المعتمر بن سليمان : قال لي أبي : يا بني اقرأ عليّ
أحاديث الرخص لعلي ألقى الله وأنا حسن الظن به . فينبغي
للمؤمن أن يرمي صوت الخوف ويحدو الناقة كما قال حادي
البادية :

بشرها دليلها وقالاً غداً ترين الطلح والجبالا

بسنده إلى أبي هريرة ، قال : قال رسول الله . ﷺ : ((قال
الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي)) متفق عليه . (١)

بسنده إلى جابر ، قال : قال سمعت رسول الله . ﷺ . قبل
موته بثلاث يقول : ((لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن بالله

(١) أخرجه البخاري في (التوحيد ، ح / ٧٤٠٥) ومسلم في (الذكر ،
ح / ٢٦٧٥) اللؤلؤ والمرجان .

الظن)) أخرجه مسلم .^(١) وقال الفضيل بن عياض :
الخوف أفضل من الرجاء فإذا نزل الموت فالرجاء أفضل .
قلت : وهذا صحيح لما بينا من أن الخوف سوط يساق به
المتواني ، فإذا كَلَّ البعير لم يبق إلا الرفق ، فإن قيل : فما
القول في خوف عمر بن عبد العزيز عند الموت ، فالجواب
أنه لما تعلقته به حقوق الرعية خاف من مطالب طبعه مبني
على الشح ، كان يقول : إنما أخاف ولايتكم هذه على أنه قد
كان يتمسك بأذيال الرجال ، فإن ابن عباس لما قال له :
أبشر يا أمير المؤمنين وليت فعدلت ثم شهادة ، فقال :
أشهد لي بهذا عند الله يا ابن عباس .

(١) أخرجه أبو داود (ح / ٣١١٣) .

الباب الخامس عشر

فصل في اشتداد الكرب على المريض

فإن اشتد بالمريض كرب ، فليحسب ذلك في باب الأجر ،
فقد كانوا يستحبون للمريض شدة الفزع ليكفر ذلك عنه
الذنوب ، بسنده إلى إبراهيم ، قال : كانوا يحبون أن يجهدوا
عن الموت .

وذكر بسنده عن عمر بن عبد العزيز ، قال : ما أحب أن
تهون عليّ سكرات الموت أنه آخر ما يكفر به عن المرء
المسلم .

وينبغي للمريض مادام ثابت العقل أن يتوب ليلقي الله طاهراً
من كل ذنب ، وأن يجرّد وصيته ، وأن يسلم أهله وولده إلى
الله سبحانه وتعالى ، فإنه يتولى الصالحين .

فإن أزعجه الشيطان بذكر الشيطان بذكر البلى ، فليعلم أن
البلى واقع على المركب والراكب قد رحل ، وليعلم أن الشريعة

قد مضت بوصول المؤمن بعد الموت إلى النعيم الدائم ن
فمن حقق الإيمان لم يحزن ، لأن مآل المؤمن إلى الخير ،
ومن لم يتحقق الإيمان فليحزن لفقد التحقيق . وسنده إلى
كعب عن النبي . ﷺ . قال : ((نسمة المسلم طير تعلق في
شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده)) . (١) ومقصودنا
من هذا الباب أن يكون الخوف من الموت بمقدار لئلا ينهك
البدن ويبالغ في الأذى ، وأن يخاف لما بعد الموت فيعمل
له .

وإذا اشتد الفرح التهب الدم ، وذلك يضر ، وربما قتل إن لم
يعدل ، وينبغي للإنسان إذا رأى أسباب الفرح أن يدرج نفسه
إليه ، فإن يوسف . ﷺ . لما التقى بأخيه سأله هل لك من
أب .

(١) أخرجه أحمد (٣ / ٤٥٥ ، ٤٦٠) والطبراني في " الكبير " (١٩ /
٦٤) وصحيح الجامع (ح / ٢٣٧٣) .

ولم يزل يلاطفه لئلا يفجأه بالسبب المفرح ، والمفرح ينبغي أن يكون بمقدار ليعدل الحزن ، فأما إذا أفرط فإنه دليل على الغفلة القوية ، إذ لا وجه للمفرح عند العاقل ، وإنما يفرح بالطبع لما يفرح ، ثم يذك مصيره وخوف مآله ، فينمحي ذلك المفرح ، ومتى قويت غفلة الفرح حملت إلى الأشر والبطر ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ (القصص: ٧٦) يعني الأشرين الذين خرجوا بالفرح إلى البطر .
وعلاج شدة الفرح بالفكر فيما قد سلف من الذنوب ، وفيما بين يدي العبد من الشدائد . وقد قال الحسن البصري :
فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب بها فرحاً .

الباب السادس عشر

في دفع الكسل

الموجب للكسل حب الراحة ، وإيثار البطالة ، وصعوبة المشاق . وفي الصحيحين من حيث أنس بم مالك أن النبي ﷺ . كان يكثر أن يقول : ((اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل)) . (١)

وفي أفراد مسلم رحمه الله من أفراد أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال :

((المؤمن القوي ، خير وأحب إلى الله ، من المؤمن الضعيف)) . (٢)

(١) أخرجه البخاري في (الدعوات ، ح / ١٥٨٧) ومسلم (ص ٢٠٧٩ ، ٢٠٨٨) .

(٢) أخرجه مسلم في (القدر ، ح / ٣٤) وابن ماجه (ح / ٧٩ ، ٤١٦٨) وأحمد (٢ / ٣٧٠) .

وفي كل حين أحرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو يفتح عمل الشيطان .
وقال ابن مسعود : إني لأبغض الرجل أراه فارغاً ليس في شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة ^(١) ، وقال : يكون في آخر الزمان أقوام أفضل أعمالهم التلاوم بينهم يسمون الأتيان .

وقال ابن عباس : تزوج التواني بالكسل فولد بينهما الفقر .
وقال مالك بن دينار : ما من أعمال البر شيء إلا ودونه عقبة ، فإن صبر صاحبها أفضت به على روح ، وإن جزع رجع .

وقال سفيان الثوري : مضى القوم على الخيل العتاق وبقينا على حمر دبيرة .

(١) أخرجه أبو نعيم في " الحلية " (١ / ١٣٠) .

وعلاج الكسل تحريك الهمة بخوف فوات القصد ، وبالوقوع في عقاب اللوم ، أو بالحصول في بيد التأسف فإن أسف المفرط إذا عاين أجر المجتهد أعظم من كل عقاب ، وليفكر العاقل في سوء مغبة الكسل ، فرب راحة أوجبت حسرات وندماً ، ومن رأى جاره قد سافر ثم عاد بالأرباح زادت حسرة أسفه على لذة كسله أضعافاً ، وكذلك إذا برع أحد الرفيقين في العلم وتكاسل الآخر .

وقد أجمع الحكماء على أن الحكمة لا تدرك بالراحة ، فمن تلمح ثمرة الكسل اجتنبه ، ومن مد فطنته إلى ثمرات الجد نسي مشاق الطريق .

ثم إن اللبيب يعلم أنه لم يخلق عبثاً ، وإنما هو في الدنيا كالأجير أو كالتاجر . ثم إن زمان العمل بالإضافة إلى مدة البقاء في القبر كالحظة ثم إضافة ذلك إلى البقاء السرمدي ، أما في الجنة وأما في النار ليس بشيء .

ومن أنفع العلاج النظر في سير المجتهدين ، فالعجب من مؤثر البطالة في موسم الأرياح وتارك الاستلاب وقت النثار . بسنده إلى فرقد ، قال : إنكم لبئتم ثياب الفراغ قبل العمل ألم تروا إلى الفاعل إذا عمل كيف يلبس أدنى ثيابه ، فإذا فرغ اغتسل ولبس ثوبين نقيين ، وأنتم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل . (١)

الباب السادس عشر

في تعريف الرجل عيوب نفسه

اعلم أن النفس محبوبة وعيوب المحبوب قد تخفى على المحب ، وفي الناس من يقوى نظره وجهاده للنفس فينزلها منزلة العدو في المخالفة فيظهر له عيوبها . قال إياس بن معاوية : من لم يعرف عيب نفسه فهو أحمق ،

(١) أخرجه أبو نعيم في " الحلية " (٣ / ٤٧) .

فقيل له : فما عيبك ؟

قال : كثرة الكلام .

وهذا أمر نادر والعمل على الغالب ، فإن الغالب أن يخفى الإنسان عيوب نفسه ، ولسنا نريد انه لا يعرف عيباً فإن العاقل إذا أتى عيباً عرفه ، وإنما غرضنا العيوب الباطنة ، فإنها كالأمراض الباطنة التي لا يعلم بها الطبيب فيصف لها دواءً .

ولا عليها إمارة ، ومحبة الإنسان لنفسه تمنعه أن يرى العيب الخفي عيباً كما قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

ولكن عين السخط تبدى المساويا

وقد روي أن رجلاً سحب رجلاً فلما أراد أن يفارقه ،

قال له : أخبرني عن عيوبي .

فقال : سل غيري ، فإني كنت أراك بعين الرضا .

فإن قيل : فإذا كانت العيوب باطنة ، والإنسان لا يراها عيوباً ، فكيف الطريق إلى تعرفها ، فالجواب إن لذلك سبع طرق :
الطريق الأول : أن يتخير صديقاً من أعقل مخالطيه ،
ويسأله إبانة ما يرى من قبيحة ويعرفه أن ذلك منة منه عليه ،
فإذا أخبره ابتهج بما سمع منه ، ولم يظهر له الحزن على ذلك لئلا يقصر في شرح الأمور ، ويقول له : متى كتمتني شيئاً عددتك غاشاً .

والطريق الثاني : أن يبحث عما يقوله فيه جيرانه وإخوانه ومعاملوه ، وبماذا يمدحونه أو يذمونهم .

والطريق الثالث : أن يتطلع إلى ما يقول فيه الأعداء ؛ فإن العدو بحاث عن العيوب ، ومن هذا الوجه ينتفع الإنسان بعدوه ما لا ينتفع بصديقه لن العدو يذكر النقص والصديق يستر الخلل ، فإذا عرف الإنسان من طريق عدوه نقصه اجتنبه .

والطريق الرابع : أن يصور أفعاله في غيره ثم يستعمل منها ما يستحسن ويترك ما يستقبح .

والطرق الخامس : أن يعمل فكره في عواقب خلاله وثمراتها فيرى عيب العيب وحسن الحسن ، فإن الفكر الصادق نافذ .
والطريق السادس : أن يعرض أعماله على محك الشرع ويربها نافذ العقل ويضعها في موازين العدل ، فإنه يرى الأرجح والأدون .

والطريق السابع : أن ينظر في سير العاملين ثم يقيس أفعاله بأفعالهم فيرى أن آثار النقص عيب فضلاً عن فعل القبيح .

الباب السابع عشر

إذا كانت الهمة الدنية طبعاً لم ينجح فيها العلاج ؛ فإن كانت مكتسبة بصحبة الأدنياء أو لغلبة الطبع والهوى فعلاجها قريب ، وذلك من وجوه :

منها مقاطعة أهل الدناءة أنفة منهم ومواصلة أرباب الهمم العالية ، ثم التفكير بالعواقب ، ومآل الدناءة ومصير أولي الجد والاجتهاد ؛ كما قال عبد الصمد : مات رجل من السعادة وقد بقي له شرط ، والناس يقولون له : مت اليوم تحيا أبداً فانتبعت بها ، ومن تفكر في المرتفعين في الهمم على أنهم كهو من حيث الأصلية والآدمية ، غير أن حب البطالة والراحة جنياً عليه فأوثقاه ، فساروا وهو قاعد ، ولو حرك قدم العزم لوصل ، قال الشاعر :

إذا أعجبتك خصال امرئ فكفه تكن مثل ما أعجبتك

فليس على الجود والمكرمات إذا جئتها حاجباً يحجبك

ومن نظر في أخبار السلف رأى عموم الفقهاء والعلماء ، وأكثر المشار إليهم بذلك من الموالى ومن الضعفاء وأهل الحرف الدنية ، إلا أن الهمم أثرت فأثرت عن موطن ، ولو تفكر أرباب الهمم الدنية في عواقبها وما يجئ عليهم ، لرأوا

البطالة عدواً . وإنما صحبوا دناءة الهمة تعجلاً للراحة ، وما يلقونه من الحشرات على فوت الفضائل والسقوط من أعين الناس ؛ والإهانة بهم أعظم من كل كرب وشدة .

وما يناله أرباب التعب من الراحة في تعظيم الخلق لهم ، وارتفاع قدرهم في الدنيا قبل الآخرة ، ينسي مرارة كل نصب ، فكأنه ما تعب من استراح ولا استراح من تعب .

يسنده إلى أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ((يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ في النار صبغة ثم يقال له : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟

فيقول : لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة ثم يقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مرة بك شدة قط ؟ فيقول : ((لا والله يارب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط)) . (١)

(١) أخرجه أحمد (٣ / ٢٠٣) .

وبيان هذا أن التعب ينقضي وتبقى الراحة ، والراحة تذهب وتبقى الحسرة ، والمقام موسم ، والفوات معترض ، والاستلاب عاجل ، وفي بعض هذا إزعاج للمتواني .

الباب الثامن والعشرون

في رياضة النفس

الأصل في الأمزجة الصحة ، والعلل طارئة ، وكل مولود يولد على الفطرة ، ويوضح ما قلناه إن الرياضة لا تصلح إلا في نجيب ، والكودن لا تتفعه الرياضة ، والسبع وإن ربي صغيراً لا يترك الافتراس إذا كبر ، وقد عرفت تلك الحكاية (فمن أنباك أن أباك ذيب) .

واعلم أن في الإنسان قوى ثلاثة : قوة ناطقة ، وقوة شهوانية ، وقوة غضبية ، فينبغي لمن شرفه الله تعالى بحب العلم أن يعتني بتكميل النفس الناطقة التي فضله الله تعالى بها على

سائر الحيوانات وشارك بها الملائكة ، فيجعلها هي المسلطة على القوتين الآخرين .

أعني الشهوانية والغضبية ، لتكون منزلتها في البدن بمنزلة الراكب للفرس ، فإن الفارس ينبغي أن يكون هو المسلط على الفرس لاستعلائه فيمضي بها أين يشاء ويعقها إذا شاء .
فكذلك ينبغي أن تكون القوة الناطقة هي المستعلية على باقي القوى ، تستعملها كما تحب ، وتكفها حين تحب .
ومن كان كذلك استحق أن يسمى إنساناً حقيقة .

قال أفلاطون : الإنسان بالحقيقة من كانت نفسه الناطقة أقوى الأنفس ؛ لأن الشهوانية إذا أفرطت خرج الإنسان إلى طبع البهيمية .

ومن سيب هواه في مرعاه وجعل حبله على غاربه فقد خرج عن مركزه فصار أخس من البهائم ، لأن تلك تمضي بطباعها .

وهذا قد خالف طبعه ، ومتى أفرطت القوة الغضبية بمخالفة الشهوانية ويكسر الغضبية ، ويتبع القوة الناطقة حتى يتشبه بالملائكة ، ويتحرز من عبودية الشهوة والغضب .

الباب التاسع عشر

في رياضة النفس

قال ابن القيم : واعلم أن الرياضة للنفس تكون بالتلطف والتقل من حال إلى حال ، ولا ينبغي أن يؤخذ أولاً بالعنف ولكن بالتلطف ، ثم يمزج الرغبة والرغبة ، ويعين على الرياضة صحبة الأخيار ، والبعد عن الأشرار ، ودراسة القرآن والأخبار ، وإجالة الفكر في الجنة والنار ، ومطالعة سير الحكماء والزهاد . وقد كان بعض السلف يشتهي الحلوى فيعدها لنفسه فإذا صلى بالليل أطمعها . وكان الثوري يأكل ما يشتهي ثم يقوم إلى الصباح .

ويقول : أطعم الزنجي ولده ، وما زال المحققون يلففون
بنفوسهم إلى أن ملكوها فقهروها .

وقال بعض جيران مالك بن دينار : سمعته ليلة يقول لنفسه
: هكذا فكوني ، فلما أصبحت ، قلت له : ما معك في الدار
أحد ، فلمن قلت ؟

قال : إن نفسي طلبت مني أدماً وألحت فمنعتها الطعام
ثلاثة أيام ، فلما كانت الليلة وقد انقضت الأيام وجدت كسرة
يابسة فبادرت إليها .

فقلت : قفي آتيك يخبز لين .

فقالت : قنعت بهذه .

قلت : هكذا فكوني .

واعلم أنه إذا علمت منك النفس الجد جدت ، وإذا عرفت منك
التكاسل طمعت فيك .

كما قال الشاعر :

ويعرف أخلاق الجواد جواده فيجده كراً ويرهقه ذعراً
ومن الرياضة لها محاسبتها على كل فعل وقول ،
ومحاسبتها في كل تقصير وذنب ، فإذا تمت رياضتها حمدت
ما ذمت من تعبها .

قال ثابت البناني : كابدت الليل عشرين سنة وتتعمت به
عشرين سنة .

وقال أبو يزيد : مازلت أسوق نفسي إلى الله تعالى وهي
تبكي حتى سقتها وهي تضحك ، وفي هذا المعنى قول
الشاعر :

مازلت أضحك أبكي كلما نظرت إلى أن اختضبت
أجفانها بدمي

وبعد هذا فلا ينبغي أن ينسى حقها ، فإن من حقها إعطاءها
حظوظها التي لا تقدر في مقصود الرياضة فإنها إذا منعت
مقاصدها في الجملة عمي القلب ، وتشتت الهم ، وتكلف

التعبد ، واعلم أن قدر النفس عند الله سبحانه أعظم من قدر العبادات ، ولهذا أباح الفطر للمسافر ، وإنما يعقل هذا العلماء .

الباب العشرون

في ذكر رياضة الأولاد

أقوم التقويم ما كان في الصغر ، فأما إذا ترك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرن كان رده صعباً ، قال الشاعر :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا يلين إذا قومته
الخشب

قد ينفع الأدب الأحداث في مهل وليس ينفع في ذي الشيبة الأدب ، ثم المواظبة على الرياضة أصل عظيم ، خصوصاً في حق الصبيان ، فإن ذلك يفيدهم أن يصير الخير عادة ، قال الشاعر :

لا تسه عن أدب الصغير وإن شكا ألم التعب

واعلم أن الطبيب ينظر إلى سن المعالج ومكانه وزمانه ثم يصف ، فكذاك ينبغي أن تكون رياضة كل شخص على قدر حاله ، وإمارة فلاح الصبي وفساده تتبين من طفولته ؛ فالنجيب منهم يتتبه بالتعلم ، والذي ليس بنجيب لا ينفعه التعلم ، كما لا يصير الهجان بالرياضة نجيباً ، وينبغي أن يتلف بالصبي .

قال رجل لسفيان الثوري : نضرب أولادنا على الصلاة ؟

قال : بل بشرهم .

وكان زبيد اليافي يقول للصبيان : من صلى منكم فله خمس جوازات .

وقال إبراهيم بن أدهم : أي بني أطلب الحديث فكلما سمعت حديثاً فلك درهم فطلب الحديث على هذا .

الباب الحادي والعشرون

في تعليم الأمانة

وليعلم الوالد أن الولد أمانة عنده ، فليجنبه قراء السوء من الصغر ، ولا يعود ، وليلق إليه الخير ، فإن قلبه فارغ يقبل ما يلقي إليه ، وليحبب إليه الحياء والسخاء ، وليلبسه الثياب البيض ، فإن طلب الملون ،

قال له : تلك ملابس النساء والمخانيث ، وليبادره بأخبار الصالحين .

وليجنبه أشعار الغزل لأنها بذر الفساد ، ولا يمنع من أشعار السخاء والشجاعة ليمجد وينجد ، فإن أساء تغافل عن إيساعته ، ولا يهتك مؤدبه ما بينه وبينه من الستر ، ولا يوبخ إلا سراً ، ويمنع من كثرة الأكل والنوم .

ويعود الخشونة في المطعم والمفرش فإنه أصح لبدنه ، ويعالج بالرياضيات الجسمانية كالمشي ، ويؤدب بالنهي عن

استدبار الناس والامتخاط بينهم والتثاؤب ، فإذا علقت به خلة
قبيحة بولغ في ردهه عنها قبل أن تتمكن ، ولا بأس بضربه
إذا لم ينفع اللطف .

فقد قال لقمان لابنه : يا بني ضرب الوالد للولد مثل السماد
للزراع .

وإذا رآه عرماً في صغره فليتلطف به ، فقد قال ابن عباس :
عرامة الصبي زيادة في عقله .

الباب الثاني والعشرون

في تعليم الصغار والخادم

وكان الحكماء يقولون : ابنك ريحانتك سلع سنين ، وخادمك
سبع سنين ، فإن صار ابن أربع عشرة سنة فإن أحسنت إليه
فهو شريكك ، وإن أسأت إليه فهو عدوك ، ولا ينبغي أن
يضرب بعد بلوغه ولا أن يساء إليه ، لأنه حينئذ يتمنى فقد

الوالد ليستبد برأي نفسه ، ومن بلغ عشرين سنة ولم يصلح
فبعيد صلاحه ، إلا أن الرفق متعين بالكل .

الباب الثالث والعشرون

في رياضة الزوجة ومداراتها

من المتعين المبالغة في النظر به هذا الباب ، فأصلح الأمور
أن يتزوج الرجل البكر التي لم تعرف سواه ، فقد قالت
الحكماء : البكر لك والثيب عليك ، إلا أنه من أعظم الغلط
أن يتزوج الشيخ الكبير طفلة فإنها تصير كالعدو ، ولكنه
يحبسها عن أغراضها ولا تقدر أن تفي مرادها ، وهي تنفر
عن الشيخ طبعاً ، فإن ابتلى الإنسان بذلك فليسلم بغضه
عندها بحسن خلقه واحتماله وكثرة الإنفاق عليها .

وقد أمعنا الشرح لهذه الجملة في كتاب ((الشيب)) وينبغي
أن يتزين لها كما يحب أن تتزين له ، ويستتر جسده عنها فلا

ترى منه إلا المستحسن ، وكذلك ينبغي لها أن تفعل . ولا ينبغي للرجل أن يمزح مع المرأة فتطمع فيه طمعاً يخرجها عن طاعته ، ولا أن يسلم ماله إليها فيصير هو كالرهن في يدها ، فرما استغنيت واستوثقت لنفسها ثم تركته . وقد قال الله تعالى : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء: ٥) بل ينبغي أن يمزح بنوع من الهيبة .

الباب الرابع والعشرون

في تعليم الزوجة

وأكثر العلاج في إصلاح منعها من محادثة جنسها ، ومن خروجها من بيتها ، وإطلاعها من ذروته ، وأن تكون عنده عجوز تؤدبها وتكون كالحافظ فإن عقل الصبي مأفون . وإن وجد الشيخ امرأة قد خرجت عن زمان الصبا ولم تدخل

في الكهولة كانت أصلح لعيشه وأقل امتناناً عليه وأكثر توقيراً له .

فأما الشاب فإنه يَنْبَلُ ولا يُدَلُّ ، فإذا أراد لتمتع بالنساء فالرأي له ، إن كان له مكنة اشترى الجواري الصغار فإنهم لم يعرفن الغيرة وهي قليلة عندهن لموضع الملكة وقدرته على الاستبدال والبيع ، ولتكن معهن حافظة وهي قليلة عندهن لموضع الملكة وقدرته على الاستبدال والبيع ، ولتكن معهن حافظة ، ولتكن على الحافظة حافظة .

من رزق امرأة على مراداته فليهب ما فات لما حصل ، فإن الأصول إذا كانت محفوظة لم تذكر الفروع ، وكثرة النساء تحتاج إلى مؤنات عظام أقلهن حفظهن .

الباب الخامس والعشرون

في رياضة الأهل والممالك ومداراتهم

اعلم أن الأهل إذا رأوك قد فقتهم بمال أو جاء حسدوك . ومقاطعتهم محرمة ، فالمدارة لازمة ؛ وذلك بالبر لهم مع كتمان بواطن الأحوال عنهم . ومن أعظم الغلط حرمان بعضهم وإعطاء البعض ، فمن اختار ذلك فليجتهد في أسرار الأمر لئلا يشتري بالمنع البغض . وأما الممالك فإنهم مالكون على الحقيقة لمالكهم ، لأن المطاعم والمشارب إليهم ، فينبغي أن يتلطف بهم لئلا يحتالوا على القتل .

قال بزرجمهر : نحن ملوك على رعيتنا ، وخدمنا ملوك على أرواحنا ، ولا حيلة لنا في الاحتراز منهم ، فنحن نداريهم . وليجعل الملك مع اللطف بهم هيبة ، إلا أن البر لهم يكون أغلب ، وأكثره في حق من يسلم إليه الروح ، وهو صاحب المطعم والمشرب .

واعلم أن المماليك وإن كانوا أهل ذكاء وفطنة يستتر منك عنهم شئ فربما احتالوا عليك ، وإن كانوا أهل غباوة لم تبلغ غرضاً في استخدامهم لأنك تريد الشيء فلا يفهون مرادك ، والصواب استخدام أهل الغفلة في الدواخل ، وأهل الذكاء منهم خارج البيت ، فحينئذ تتم الأغراض .

ومن أعظم دخول المملوك المراهق إلى البيت ، خصوصاً إن كان حسن الصورة وفي البيت نسوة ، فإن الشر لا يؤمن فإن سلمن من ميل إليه لم يسلم هو من ميل .

وكذلك من باب المخاطر ترك الولد البالغ بين الجواري ، ومعلوم أن قوة الشهوة وجهل الصبا ينسيان مقدار الحرمة والتحريم ، فهذه أصول ينبغي أن يداوي بدوائها ولا تمهل فإنها تجر أموراً صعبة .
